



كثيرة جداً هي الآيات التي تدعو من خلال عرض الأحداث أو من خلال آيات الله في الكون ، تدعوا إلى إعمال العقل والتذير في هذه المسألة أو تلك ، خاصة في موارد الشبهات أو ما يلقى المجادلون من أسئلة أو مماحكات، والعقل في القرآن الكريم هو إجراء ذهني يساعد على السيطرة والضبط والتحديد، هو عملية رشد.

(1)

وتمييز بين الهدى والضلال ، وهو عملية تعقل صاحبها عن الإتيان بعمل لا يريده الشرع ، وليس هو مادة جامدة اسمها (العقل) كما كان الفلاسفة سابقاً يظنون ولذلك يرد في القرآن دائماً الفعل (يُعقلون ، تَعْقِلُونَ) .

قال تعالى في الرد على المشركين الذين يستنكرون أن تكون النبوة في البشر (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

وكان الرد من القرآن : (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) الإسراء / 94 . 95

وكانه يُقال لهؤلاء : لماذا لا تعقلون ، كيف ينزل عليكم ملكاً كما تطلبون أو تعاندون، وتستبعدون أن يكون النبي من البشر . كيف تتفاهمون مع الملائكة لو أنزلنا ملائكة وحتى لو أنزلنا ملكاً ، فسيكون بشكل رجل ، فتعود الشبهة عندكم (وَلَوْ جَعَلْنَا مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَّبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) أي ستقولون إنه بشر وليس ملكاً . وهذا منتهى العناد وقلة العقل عند هؤلاء.

وفي مناقشة الكفار حول دعayıهم أن محمداً (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تعلم هذا القرآن من قوم من أهل الكتاب أو من الأعاجم قال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلَّمُهُ بَشَرٌ ﴿٤﴾ لِسَانُ الذِّي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهُدًى لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) النحل / 103

وقال (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَنْبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الأنعام / 105 (وقالوا أسطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)

يقولون : إنك يا محمد قرأت على غيرك وتعلمت منه وحفظت الدرس بأخبار من مضى ، وتعلمت هذا من رجلين من الروم كانوا في مكة وكان الرد عليهم : كيف تفكرون أليس لكم عقول ، كيف يكون عند هذا الأعمامي الروسي وهو قين ويعمل حدّاراً في مكة هذه الفساحة في القرآن وهذه البلاغة ، وهذه العلوم الموجودة في نصوصه ثم كيف يكون هذا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمي لا يكتب فاي صحف قرأها .

كان العرب في الجاهلية يقولون عن أصنامهم : (اللات والعزى ومنا) أنهم بنات الله ، كما كانوا يقولون عن الملائكة أنهم بنات الله ، قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزَّىٰ وَمِنَا) (19) وَمَنَّاَةُ التَّالِثَةِ الْأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (21) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضَيْزَىٰ) وقال تعالى (أَفَأَصْفَاقُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) . يقول لهم : اذا كنتم وحسب تفكيركم تكرهون الأنثى (ويجعلون لله ما يكرهون) (وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِدًا وَهُوَ كَظِيمٌ) وإذا كنتم تتضعون الأنثى في منزلة أدنى من الذكر ، فلماذا يجعلون المستحسن عندكم هو لكم والمذموم عندكم هو لهم ؟ هذه قسمة غير عادلة وهذا لبيان عوج تفكيرهم ، وأما قضية الذكر والأنثى والتفضيل بينهما فهذا مذكور في آيات أخرى وعندما قالت اليهود : (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ) فهذا يلزم منه أن الله تعالى لم ينزل التوراة وهم يؤمنون بالتوراة وهذا يدل على تناقضهم ولذلك كان الرد (فُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ) . وقد ذكر القرآن قول النصارى في المسيح عليه السلام (فَالْأُولَاءِ اتَّخَذُ اللَّهَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهِنَا أَتُقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يونس / 68 . (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذًا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُنَ مِنْهُ وَتَنَشَّقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) مريم / 88 - 91

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذِّدَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) الزمر / 4

قولهم : اتخاذ الله ولدا يدل على أنه لم يكن له ولد ثم اتخذ ولدا ، الجاء سبحانه على اتخاذ الولد ، هل هو بحاجة إليه وهو الغني وله ما في السموات والأرضن ، ولو فرضاً أراد أن يتخذ ولدا فيصطفي من يشاء من خلقه ويحصل به المقصود فلماذا عيسى عليه السلام ، وهو سبحانه ليس بحاجة لذلك ثم إن (الولد) لا يتخذ بل يتولد وهذا تنبيه لهم وإزراء بهم الذي أدى إلى تناقضهم فكيف يكون ولد وكيف يتخذ ؟

وقال تعالى حاكياً قول قريش (وَقَالُوا إِنَّ تَبَعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُنَخَّطِفُ مِنْ أَرْضِنَا إِنَّمَا نُمَكِّن لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) فهم يقولون : إذا اتبناك يا محمد فإن الناس سيأكلوننا بسبب دعوتك الجديدة . ورد الله سبحانه عليهم : من الذي مكن لكم هذا الحرم حتى أصبحتم آمنين في ظله يحترمكم الناس بسببه ، وأصبحت تجارتهم غالية رائحة بأمان واطمئنان وأصبحتم أغذية بسبب الإيلاف الذي أقمتموه والذي هو سبب احترام العرب لكم وأنكم من أهل الحرم ، لماذا لا تفكرون بعقلكم ؟ .

وقد اتهمت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إنما يدعى النبيوة ليستفيد منها رئاسته وما لا ، فقال لهم سبحانه (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَقْلُوْنَ) يونس / 16 .

أي قل لهم يا محمد لو كنت أريد الدنيا والرئاسة لطلبتها في مقتبل العمر وأنا معكم وتعرفوني فلماذا أنتظر حتى أبلغ سن الأربعين ، أليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل .

يطلب القرآن من الناس استخدام عقولهم ، وأعطائهم الأمثلة على ذلك وأنهم اذا استعظموا شيئاً فهناك ما هو أعظم منه ، أي ليتعلموا المقارنة والملاحظة قال تعالى (أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسْوِيَ بَنَانَهُ (4))

أي اذا كان الكفار ينكرونبعث والقيام من القبور ، فإن الله سبحانه سوئي البنان وهو شيء أدق وأعظم وقد كشف العلم الحديث عن سر البصمات التي في أطراف الأصابع وكما جاء على لسان يوسف عليه السلام (يا صاحب السجن أرباب مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ) يوسف/ 39 .

(وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) ابراهيم/8 أي فكروا في أنفسكم، ماذا تضررون الله إن كفرتم ، إنما تضررون أنفسكم ، وأنتم المستفيدون من الإيمان في الدنيا والآخرة .

المصادر: